.. يمد فوق خرائب الصحراء اغطية الزمن » او « وفي مناقير الطيور العابرات البحر أغصان الترقب » و « أستبد بك التداخل في الحياة » و « وما زال الغد الآتي حصانا في حقول الظن » و « ورؤى التخطي والرغاب اللاهثات وراء كثبان الازل » !! و « عيونهم كحجارة الشط المديد » ... الخ . ان هذه الصور لا تمتحن قدرة القارىء على التخيل او الاستيعاب او المتابعة ، ولكنها فحسب ، تنفر من القصيدة ، عابرة ، سهلة ، لا تعني شيئا .

في المجموعة الثانية من القصائد التي تلي قصائد « المنفى » ، تنضج امامنا صورة البطل الجديد ، فهو لم يعد يحدق في اليباب المحيط ، ولا يجادل المدينة الميتة ، بل هو يبدأ خطوته الاولى مسافرا ، انها نقطة البداية ، في قصيدة « اسفار معاصرة » ، نواجه « بطلا » لا يعرف التعلات ، ولا الامال الباطلة ، او العابرة ، ان خيله تستدير الى الوراء ، نافرة مما ترى ، يبلل العرق اعرافها الغبراء ، والغمد المدلى دون سيف ، وان مترتبيه مضوا ، وهيمن في المكان « ظل الغيوم كمضرب لخيام قوم هاجروا غربا وما حملوا الخيام » انها صورة آسرة لمعنى العطش الى الخلاص ، الخلاص الذي تجسده ارادة بطل يصرخ رغم كل شيء بانه سيواصل الدنيا .. ويمشي لكي يصل — عبر حياته الحمراء الصلبة — الى المدينة المنتظرة ، حيث يسمع من خلف بيوتها البيضاء التي لا نوافذ فيها ولا ابواب أغنية بشرية :

تفتحي ، تفتحي !
يا زهرة البيوت يا مداخل الاسوار
وقدمي لهذا الفارس المسكون بالاسفار
وردة حمراء
أو أغنية عن الوصول .. (ص ٢٨) .

ولكنه البطل — المخلص ، يخطو رغم كل شيء ، فينزع ما اصابه من سهام ويمر ، عابرا ، يحمل في يديه حياته الحمراء ، ليسكبها على سور المدينة ، وصورة البطل المخلص ترتبط بصورة البطل الغاوي . ولعل هذه الميزة هي من أبرز ميزات الشعر الفلسطيني الجديد ، انه الفدائي الذي يخرج « مرتديا ازار الموت » كما ورد في قصيدة « الفلسطينيون » (ص ٢٠) ، الى الارض ليفجر منها الماء بكفيه ، « ولا يقف انتظارا لانهمار الغيث ذات نهار » ، وهو الشهيد الذي يعرف ان في موته انبعاثه ، والنذر الذي يخصب منه المستقبل . في قصيدة « موت وراء النهر » (ص ٦٠) تتضح هذه المعادلة اذ تبدأ القصيدة بصوت منفرد :

مت فيها مرتين
مزقوا صدري ووجهي واليدين
ووراء النهر آتيكم بصدري وبوجهي واليدين ..

ان الموت في الارض ، ومن اجلها هو الطريق والجسر الى الضفة الثانية . لذلك فان الفدائي — المخلص ، هو الاكتشاف الاعمق لمعنى جدل الثورة ،

كنت يا محبوبتي اغمر خديك بقبلاتي ، فجاءوا
هجموا مثل الضباب ،
قتلوني مرتين ،
غنمت في حياتي
عندما هم قتلوني !
واليهم أذهب اليوم وزنداي عقاب .

وفي الحركة الرابعة من القصيدة ، يسجل الشاعر هذه المعادلة التي اشار اليها سابقا في صورة الفدائي الذي يخرج الى الارض « مرتديا ازار الموت » ، يسجلها ثانية بحكمة شعرية اعمق ،

انني والموت جاران وكم يسمعني
دورة المفتاح في الباب المجاور
نتلاقى كل يوم ونسافر
في دروب كلما امتدت بعيدا
أرجعتنا في النهاية
تحت سقفين نعيش الانتظار المتجاور .

ان تجربة مريد البرغوثي الشعرية ، تجربة أصيلة دون شك ، وأخص منها تجربته المتأخرة الناضجة . فهو فيها غير مستلب ، شعريا ، وغير متشتت او خاضع لاصوات سابقة . وما علي اخيرا الا ان الفت نظر الشاعر ، ثانية ، لما أخذته عليه في التجاءاته المتعددة للصورة المجردة غير الملائمة ، وفي الامثلة التي أوردتها كفاية ، فيما أظن ..

فوزي كريم